فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ

كثير من آيات الكتاب تدعوا إلى التدبر في الكون وتأمّل مدى دقته وتناسقه وعظمته وجماله ، إن الخالق عز وجل بمنه وكرمه وفضله قد أظهر لنا آياته في ❶كتاب منظور نراه ونحسّ به، ❷وكتاب مسطور نقرؤه ونرتّله ألا وهو القرآن الكريم بآياته وعظاته، الذي يَعْمد إلى تنبيه الحواسّ والمشاعر وفتح العيون والقلوب إلى ما في هذا الكون العظيم من مشاهد وآيات ، لا تتجلى على حقيقتها ولا تؤدّي مفعولها إلا للقلوب الذاكرة الحَيّة المؤمنة، تلك التي تنظر في الكون بعين التأمل والتدبّر، تلك التي تُعمِل بصائرها وأبصارها وأسماعها وعقولها، ولا تقف عند حدود النظر المشهود، لتنتفع بآيات الله في الكون

عن عائشة أم المؤمنين قام [أي رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ] ليلةً من الليالي فقال : يا عائشةُ ذَريني أتعبَّدُ لربي قالت : قلتُ : واللهِ إني لَأُحبُّ قُربَك وأحبُّ أن يُسرَّك قالت : فقام فتطهَّر ثم قام يصلي فلم يزلْ يبكي حتى بلَّ حِجرَه ثم بكى فلم يزلْ يبكي حتى بلَّ الأرضَ وجاء بلالٌ يُؤذِنه بالصلاةِ فلما رآه يبكي قال يا رسولَ اللهِ تبكي وقد غفر اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخَّر قال أفلا أكونُ عبدًا شكورًا ؟ لقد نزلتْ عليَّ الليلةَ آياتٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّرْ فيها { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } الآية السلسة الصحية

قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: 190].

أثنى الله على المتفكرين في آياته ، يقول الله جل وعلا : (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: 191].

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : " تفكر ساعة خير من قيام ليلة ".

يا رب هذا العصر أَلْحَدَ عندما — سخرت يا ربي له دنياك
ما كان يطلق للعلا صاروخه — حتى أشاح بوجهه وقلاك
أوما درى الإنسان أن جميع ما — وصلت إليه يداه من نعماك
لله في الآفاق آيات — لعل أقلها هو ما إليه هداك
ولعل ما في النفس من آياته — عجب عجاب لو ترى عيناك
والكون مشحون بأسرار إذا — ما حاولت تفسيرا لها أعياك

الاستدلال بالآيات الكونية على أن الله واحد أحد، لا شريك له ، ولا ند له ، ولا نظير له ، ولا معبود بحق سواه سبحانه، والتي تقرر العباد باستحقاق الله أن يفرد بالعبادة .

❶البعوضة ❷الإحياء والإماتة ❸خلق السماوات والارض ❹ وخلق آدم.

إن الناظر في الكون وآفاقه يَشعُرُ بجلال الله وعظمته، الكون كلّه عاليه ودانيه، صامتة وناطقُه، أحياؤه وجماداته، كله خاضع لأمر الله، منقاد لتدبيره، شاهد بوحدانيته وعظمته، ناطق بآيات علمه وحكمته، دائم التسبيح بحمده.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27) .

فإن أمثال القرآن لها بلاغة خاصة لا يدركها إلا العارف بأسرار اللغة العربية، وفي القرآن الكريم من صريح الأمثال واحد وأربعون مَثلاً ، وهذا واحد من هذه الامثال في آية 26 من سورة البقرة .

قال ابن القيم : فإن الأمثال تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس .

⇦والتمثيل يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان بتشبيه المعقول بالمحسوس وقياس النظير على النظير.

وقال الرازي: ⇦والمقصد من هذا التمثيل تحقير الأوثان.

قال ابن القيم : هذا جواب اعتراض ، اعترض به الكفار على القرآن و قالوا : إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة ، فلو كان ما جاء به محمد ε ، كلام الله ، لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة ، فأجابهم الله تعالى بأن قال (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) ، فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها ، إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه وإبطال الباطل وإدحاضه ، كان من أحسن الأشياء ، والحسن لا يستحيا منه ، فهذا جواب الاعتراض .

أما سبب نزول هذه الآيات فقد روي عن بن عباس قال: لما ذكر الله آلهة المشركين فقال: (وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ) [الحج: 73] وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت، قالوا: أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أي شيء يصنع؟ فأنزل الله الآية.

وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين به المثل، ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله الآية..

(إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) ⇦فيه إثبات الحياء لله تعالى ، وجه الدلالة : قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : إن نفي الاستحياء عن الله تعالى في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها .

وقد دلت السنة على إثبات الحياء لله تعالى .

كما قال ε (إن اللهَ عزَّ وجلَّ حليمٌ حييٌّ ، سِتِّيرٌ ، يُحِبُّ الحياءَ ، والسِتْرَ) النسائي .

وقال ε (إنَّ اللهَ تعالى حييٌّ كريمٌ ، يستَحي إذا رفَع الرَّجلُ إليه يدَيهِ أن يردَّهُما صِفرًا خائبتَينِ) صحيح الجامع

⇦وحياؤه سبحانه وتعالى وصف يليق به ، ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغير وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يعاب أو يذم ، بل نثبتها لله تعالى على ما يليق بجلاله وكماله ، إثباتاً من غير تمثيل لها بخلقه . ابن عثيمين رحمه الله

يقول تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) أي: أيَّ مثل كان لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكأن في هذا، جوابا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض على الله في ذلك، فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم ، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر.

إن الله سبحانه وتعالى عندما ضرب مثلا بعوضة فهو ليبين للناس أن هذا المخلوق الصغير في حجمه عظيم في خلقه، هذه المعلومات عنها :

1. هي أنثى (الدليل كلام الله عز و جل : فوقها).
2. لها مائة عين في رأسها* لها في فمها 48 سن.
3. لها ثلاث قلوب في جوفها بكل أقسامها.
4. لها ستة سكاكين في خرطومها ولكل واحدة وظيفتها.
5. لها ثلاث أجنحة في كل طرف.
6. مزودة بجهاز حراري يعمل مثل نظام الأشعة تحت الحمراء وظيفته : يعكس لها لون الجلد البشري في الظلمة إلى لون بنفسجي حتى تراه.
7. مزودة بجهاز تخدير موضعي يساعدها على غرز إبرتها دون أن يحس الإنسان وما يحس به كالقرصة هو نتيجة مص الدم.
8. مزودة بجهاز تحليل دم فهي لا تستسيغ كل الدماء.
9. مزودة بجهاز لتمييع الدم حتى يسري في خرطومها الدقيق جدا.
10. مزودة بجهاز للشم تستطيع من خلاله شم رائحة عرق الإنسان من مسافة تصل إلى 60 كم.

⇦(فما فوقها) أي ما هو أقل منها وأحقر منها .

إن الله عاقب النمرود بن كنعان ببعوضة.

✉ذَكَر خَبَر النمرود غير واحد من المفسرين ، فقد رواه ابن جرير عن زيد بن أسلم ، وفيه : بَعث الله عليه بعوضة، فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به مَن جَمَع يديه وضَرَب بهما رأسه، وكان جبارا أربعمئة عام، فَعَذّبه الله أربعمائة سنة كَمُلْكِه، وأماته الله .

✉قال السعدي رحمه الله : ولهذا قال: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) فيتفهمونها، ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلاعلموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثا، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة.

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا)

✉فيعترضون ويتحيرون، فيزدادون كفرا إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، ولهذا قال: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية.

قال تعالى: (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) التوبة

فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة [وضلالة] وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة [ورحمة] وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال. السعدي

فيه أن الاعتراض على أمر الله من أعمال الكفار ، فيزدادون كفراً على كفرهم ، ففيه التحذير من الاعتراض على أوامر الله .

الهداية أَجَلُّ نِعَمِ الله تعالى على العباد، وهي دليل محبة الله تعالى للعبد.

نحمد الله تعالى على نعمة الهداية للإسلام، ونحمده سبحانه على توفيقه لنا فجعلنا متبعين للسنة، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، فَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الْإِيمَانَ "رواه بخاري

و الهداية محض فضل الله، و ما نحن فيه من الإسلام والإيمان إنما هو من رحمة الله بنا، و لنحذر أشد الحذر أن نمُنَّ بطاعتنا أو إسلامنا،﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: الْآيَةُ/ 17

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ) ⇦ يضل عن طريق الهدى إلى طريق الزيغ ، وعن طريق الجنة إلى طريق النار

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى فقال: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ) أي: ❶الخارجين عن طاعة الله; ❷المعاندين لرسل الله; ❸الذين صار الفسق وصفهم ; فلا يبغون به بدلا فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

قال القرطبي : والفِسْق في عُرْف الاستعمال الشرعي : الخروج من طاعة الله عز وجل ، فقد يقع على من خرج بكُفْر وعلى من خرج بعصيان .

والفسق نوعان: ❶نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان; كالمذكور في هذه الآية ونحوها ،❷ ونوع غير مخرج من الإيمان كما في قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) [الآية]

قال تعالى (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)

ثم وصف الفاسقين ونذكرها كنقاط من خلال الايات؟

❶فقال: (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ)

و النقض : إفساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد .

وهذا يعم العهد ❁الذي بينهم وبينه ❁والذي بينهم وبين عباده الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات ، فلا يبالون بتلك المواثيق; بل ينقضونها ويتركون أوامره ويرتكبون نواهيه; وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق.

❷ (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله

1) أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته.

2) وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبته وتعزيره والقيام بحقوقه.

3) وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة قاطع) متفق عليه .

قال تعالى (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ) 22محمد.

وقال ε (ما من ذنبٍ أجدرُ أن يعجّل اللهُ تعالى لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يدّخر له في الآخرةِ مثل البغيِ وقطيعةِ الرحمِ) صحيح ابي داود .

وقال ε (الرَّحِمُ معلقة بالعرش تقول: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ الله) متفق عليه

4) وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق التي أمر الله أن نصلها.

❸(وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ).

أي يسعون لما به فساد الأرض ⇦فساداً معنوياً كالمعاصي ، ⇦وفساداً حسياً كتخريب الديار ، وقتل الأنفس .

قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) الروم

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون، فقطعوها، ونبذوها وراء ظهورهم; معتاضين عنها بالفسق والقطيعة; والعمل بالمعاصي; وهو: الإفساد في الأرض.

فـ (فَأُولَئِكَ) أي: من هذه صفته (هُمُ الْخَاسِرُونَ) في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم; لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم; ليس لهم نوع من الربح؛ ✉لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان; ⇦فمن لا إيمان له لا عمل له; وهذا الخسار هو خسار الكفر،

وما الفرق بين الخسارة المذكورة في هذه الاية وبين الخسارة المذكورة في سورة العصر؟

✉وأما الخسارة في سورة العصر ❶الذي قد يكون كفرا; ❷وقد يكون معصية; ❸وقد يكون تفريطا في ترك مستحب.

المذكور في قوله تعالى: (إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) فهذا عام لكل مخلوق; إلا من ❶اتصف بالإيمان ❷والعمل الصالح;❸ والتواصي بالحق; ❹والتواصي بالصبر; وحقيقة فوات الخير; الذي [كان] العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

نتأمل في قوله تعالى (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ) (26)

✉وهو سبحانه حكم عدل: ﴿ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾سورة يونس: الآية/ 44.

فلا تتوهم أن الله تعالى يَظْلِمُ أحدًا من خلقه، فيضله وقد أخلص له العبادة، ويعذبه وقد أحبه وسعى طول عمره لمرضاته، وأتبع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.سورة التوبة: الآية/ 120.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا ﴾.سورة الْكَهْفِ: الآية/ 30.

أما هؤلاء الذين أَضَلَّهُمُ اللَّهُ فقد فَسَقُوا فَأَضَلَّهُمُ اللَّهُ عَلَى فِسْقِهِمْ، وآثروا الكفر فأعمى الله بصائرهم.

كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾.سورة الْجَاثِيَةِ: الآية/ 23.

فهذا أَضَلَّهُ اللَّهُ بَعْدَ بُلُوغِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَضَلَّهُ اللَّهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ.

ثم قال تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) 28) .

هذا استفهام مراد به التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله; الذي خلقكم من العدم ; وأنعم عليكم بأصناف النعم; ثم يميتكم عند استكمال آجالكم; ويجازيكم في القبور; ثم يحييكم بعد البعث والنشور; ثم إليه ترجعون; فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه; وتدبيره; وبره; وتحت أوامره الدينية; ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي; أفيليق بكم أن تكفروا به; وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة ؟ بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه وتخافوا عذابه; وترجوا ثوابه.

فوائد من الاية : ❶إثبات الموت لقوله (ثم يميتكم) ❷ إثبات البعث ❸ إثبات الجزاء والحساب ❹ فيه الاستعداد ليوم الحساب بالإكثار من الأعمال الصالحة التي تنجيه من كرب يوم القيامة .

يجبُ أن نعلم أن الله تعالى غنيٌ عن الخلق أجمعين، حتى لو كفروا وأعرضوا عن الطاعة والعبادة فالله غنيٌ عنهم وعن عبادتهم وطاعتهم، فهو سبحانه لا تَضرُهُ معصيَّة العاصين ولا تنفعُهُ طاعة الطائعين ، بل لا يزيد ملكه توحيد الموحدين ولا حمد الحامدين ولا شكر الشاكرين ، ولا ينقص ملكه كفر الكافرين ولا عصيان العاصين ولا إذناب المذنبين أبدًا ..

قال الله جل وعلا: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ))[فاطر:15- 17]

(يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَزِدْ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا)

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) .

الاستدلال بربوبيته سبحانه على الألوهية واستحقاق إفراده بالعبودية الظاهرة والباطنة .

قال تعالى(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (57)غافر

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا) أي: خلق لكم، برا بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) أي ثم قصد إلى السماء .

(فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) أي: هيأهن وخلقهن ودبرهن وقومهن، والتسوية في كلام العرب التقويم والإصلاح والتوطئة .

(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لا يخفى عليه شيء سبحانه .

وفي هذه الآية العظيمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن [تحريمها أيضا] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر، فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته، منعنا من الخبائث، تنزيها لنا.

أيهما خلق أولاً السموات أم الأرض، مع ذكر الدليل؟

خلق الأرض كان قبل السماء ثم خلقت السماء بعد ذلك ثم دحيت الأرض وأخرج منها الماء والمرعى وأرسيت فيها الجبال.

قول الله تعالى: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ* ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {فصلت:7-12}.

هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء بدليل لفظة ثم التي هي للترتيب والانفصال.

أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، وأما دحوها فمتأخر عنها ، فالله – سبحانه وتعالى – خلق الأرض أولاً غير مدحوة ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، أي : بسطها ومهدها للسكن ، بأن أخرج منها الماء والمرعى ، وأرساها بالجبال .

قال بهذا ابن عباس ، ورجحه البغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، وابن كثير ، والسعدي ، والقاسمي ، والشوكاني .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا) (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

قال السعدي : (اسْتَوَى) ترد في القرآن على ثلاثة معاني:

❶فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها، الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى)

❷وتارة تكون بمعنى « علا » و « ارتفع » وذلك إذا عديت بـ « على » كما في قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ)

❸وتارة تكون بمعنى « قصد » كما إذا عديت بـ « إلى » كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات

(فسواهن سبع سماوات) فخلقها ، وأحكمها، وأتقنها، (وهو بكل شيء عليم)

فـ (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا و يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ يعلم السر وأخفى)

وكثيرا ما يقرن بين خلقه للخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

لأن خلقه للمخلوقات، أدل دليل على علمه، وحكمته، وقدرته. السعدي

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)3سبأ .

الآثار المترتبة من علمنا بأن الله عليم بكل شيء .

أولاً : الخوف من الله وخشيته ، ومراقبته في السر والعلن ، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره ، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً .

ثانياً : اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض ، وللبواطن والظواهر ، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه ، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر .

قال ابن القيم : فإن قلت : فما السبيل إلى حفظ الخواطر ، قلت : أسباب عدة ، أحدها : العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك ، وعلمه بتفصيل خواطرك ، والثاني : حياؤك منه ، والثالث : إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته .

ثالثاً : إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء ، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام ، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب .

رابعاً : ونستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء : وجوب مراقبة الله ، لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء ، فسوف يراقب ربه ، بلسانه وجنانه وأركانه ، فبلسانه : لا ينطق بما حرم الله ، وبجنانه : لا يعتقد بقلبه خلاف الحق ، وبجوارحه : لا يستعملها في المحرمات ، فيستعمل العين في النظر إلى الحرام ، ويستعمل اليد في البطش الحرام ، ويستعمل الآذان في السماع الحرام .